مقدِّمة الكتاب

هيئة التحرير

منذ قيامِهِ، دَأَبَ «تجمُّعُ الباحثاتِ اللّبنانيّات» على إخراجِ المؤنَّثِ من دائِرة التعتيم الفكريّ ليغدُوَ موضوعاً للتفكيرِ والبحث، وذلك بالاستنادِ إلى مُقارباتٍ وحقولٍ معرفيَّةٍ مُختلفة، ووُجُهاتِ نظرٍ متنوِّعة، ومنهجيّاتٍ مُتعدِّدة. ولم يشذّ كِتابُنا هذا، كِتابُ «باحثات 18»، عن هذا المنحى، فشَمَل ضمنَ دائرةِ اهتمامِهِ بالمؤنَّثِ مرحلةَ الطفولةِ والمُراهَقةِ المسكوتَ عنها، لأنَّ الطِّفلاتِ والمُراهقات، شأنهنَّ شأن الأنوثة، يتلقَّين ردودَ الفعل، ويُحشَرْنَ في سجن الذاكرة الجامدة، ويُصادَرُ الكلامُ على خُبُراتِهنَّ الحياتيّةِ ومعيشتِهنَّ اليوميّة. وبالتالي، فإنَّ تخصيصَ موضوع الطِّفلات والمُراهقات في زمن الحروب والنِّزاعات بكِتابٍ لتجمُّع الباحثات السنويّ، الذي يندرج ضمن مشروعٍ أوسعَ يعمل عليه التجمُّعُ منذ سنواتٍ بعنوانِ «النِّساءُ في الحروبِ والنِّزاعاتِ المسلَّحة»، ما هو إلّا إسهامٌ للحؤول دون مُصادرةِ ذاكرةِ الأنوثةِ ودفْعِها إلى القطيعةِ العدميَّةِ أو إلى الغُلُوِّ في النسيان.

لقد واجهَتْنا قُبَيْلَ الإعدادِ للكِتاب تساؤلاتٌ عدّة، كمثل السؤال عمّا إذا كانت وضعيَّةُ الطِّفلات في الحروب تختلف عن وضعيَّةِ الأطفال الذُّكور بعامَّةٍ أو عمّا إذا كانت آثارُ الحروب وتمثُّلاتُها

تختلف أيضاً لدى كِلا الجنسيّن؟ أو السؤال عن أسباب تمييزِ الطفلات وتخصيصِ النَّظر إليهنّ؟ لم يكُن جوابُنا واضحاً ولا حاسِماً. وعلى الرّغم من ذلك خضْنا غمارَ الموضوعِ وفي ذِهنِنا أنّه طالَ أمدُ استخدامِ صيغةِ المذكّر للنظر في الأمور العامَّة، فما المانعُ من جعْلِ صيغةِ المؤنَّثِ وسيلةَ تعبيرٍ عن العَيشِ على الرّغم من فرضيَّةِ عدمِ الاختلافِ التي يُضمِرُهما هذان السّؤالان وغيرهما من الأسئلة الدائرةِ في هذا السِّياق؟

المساهماتُ التي تلقَّيناها حملت الكثيرَ من الإشارات إلى أنّ الحروبَ والصراعاتِ لا تمُسُّ اللّاعبينَ الكبارَ فحسب، وإلى أنَّ العِبءَ الأكبرَ المترتّب عنها لا يقع على النساء البالغاتِ فقط؛ إذ بدا أنَّ للأطفالِ الَّذين لم يُشارِكوا في قرار الحربِ نصيباً كبيراً من آثارِها، ولاسيِّما الطفلات والمُراهقات. بالملموسِ وبالشواهدِ والتجاربِ، جاءتنا الإجابةُ: نعم ثمَّةَ الكثير مِمّا يُقالُ حولَ تأثيرِ الحروبِ على عَيش الطِّفلاتِ والمُراهقات وعلى مَسارِهِنَّ ومستقبَلِهِنَّ.

التعمُّقُ في ما قدَّمَتهُ إسهاماتُ باحثاتٍ وكاتباتٍ وأديباتٍ وصحافيّاتٍ من لبنان ومِن عددٍ من الدول العربيّة التي شهدَتْ ولا تزال حروباً مدمِّرة، يَكشفُ لنا الدوائرَ الواضحةَ لتلك المَساراتِ التي تَرسُم واقعَ الفتيات، الطِّفلاتِ والمُراهقات ضمناً، وتُوجِّه أو تُحدِّد مُستقبلهُنَّ. أوّلاً دائرةُ الاغتِصاب والتبنّي والزَّواج المُبَكّر التي يتَّسعُ مداها مع الحروب وما يُواكِبُها من تهجيرٍ ونزوحٍ قسريَّيْن؛ ثانياً دائرة القلقِ الذي يستبدُّ بالوجدانِ وعدمِ الشعور بالأمن أو الأمان، فضلاً عن الكثيرِ مِن الاضْطِرابات النفسيّة وتلاوينِها المُختلفةِ الَّتي تربَّع فيها خوفٌ مدموغٌ في كياناتِ الطِّفلات، فشِلَت السنواتُ وانتهاءُ الحرب في محوِه. حتّى إذا ما كبِرَت الطِّفلاتُ واجهْنَ مخاوِفَهُنَّ التي طوَتها عمليّاتُ النسيانِ المقصودةُ أو غيرِ المقصودةِ، ولَتبيَّنَ من ثمَّةَ أنَّ الكثيرَ مِنَ الذِّكرياتِ وما تحمِلُهُ من مراراتٍ لا تموت على الرّغم من اتّجاهِنا إلى نسيانِها والتغلُّبِ عليها. هذا تحديداً ما عبَّرتْ عنه مثلاً شهادةُ أمل حبيب التي ضمَّها هذا الكِتاب، والَّتي حَكَتْ فيها كيف أعادها انفجارُ مرفأ بيروت في آب/أغسطس 2020 إلى حربِ العام 1958، وكيف اختلطَ اللَّعِبُ في الطفولة مع دويِّ المعاركِ لتبقى هذه المشهدِيَّةُ قابعةً في أعماقِها منذ ذلك الحين تُسجِّل حضوراً مؤلِماً في زمنِها الآنيِّ والرّاهن. في حين روتْ لنا الدكتورة في عِلم النَّفس العياديّ والمَرَضِيّ بيلّا عون كيف كان الخوفُ من الإنجاب لدى بالغاتٍ تردَّدنَ إلى عيادتِها تعبيراً عن الأثر

المدمِّر للحرب الذي انحفرَ في ذاكرتِهنَّ منذ الطفولةِ عابراً مرحلةَ البلوغِ والمُراهقة؛ ثالثاً دائرةُ العنفِ القائم على أساس الجنسِ سواءٌ داخلَ المُجتمع الكبيرِ أم ضِمْنَ دائرةِ الأسرةِ حيث تُختزَلُ طفلَةُ الأمسِ بين ليلةٍ وضحاها إلى جسدٍ تُمارَس عليه كلُّ أنظمةِ الرقابةِ الاجتماعيّة.

هذه الدوائرُ، بأبعادِها وحمولاتِها الاجتماعيّةِ والرمزيَّةِ، تتراكبُ وتلتفُّ الواحدةُ منها حولَ الأخرى لتضييقِ الخِناقِ على الفتياتِ وسدِّ المَنافذِ عليهِنَّ كما تُظهِر ذلك سعدى علوه. فهذه الدَّوائرُ التي هي من صنْع الحروب والصراعات تدعمُها أسلحةٌ وأساليبُ مدمِّرة، مباشرة وغير مُباشرة، كما بيَّن عددٌ من المُشاركاتِ في هذا الكِتاب؛ من سلاحِ الإعلام لَرَسْم صورةِ الفتاةِ الضحِيَّةِ وتكريسِها كما تقول نهوند القادري، إلى حرمانِ الفتاةِ مِنَ التحصيلِ العلميّ كما تُبيِّن سعاد العباني، إلى الوصْم الاجتماعيّ الذي تُعبِّر عنه تانيا باقاليان، وإلى غفلة القوانينِ التي تتناولُها عزَّة سليمان... إلخ، تتكشَّفُ جروحُ الطِّفلاتِ والمُراهقات التي لا تندَمِلُ على ما تقول سينتيا قريشاتي، والذاكرةُ القلقةُ بحسب رجاء مكّي، بقدر ما يتكشَّفُ كرهُ الجسدِ الذي كشفت عنه كلٌّ من نهى الدَّرويش ونهلة التميمي.

إنّها الحروبُ التي تُطلِق الغرائزَ الكامنةَ من عِقالِها فيتفلَّت الجنس، ويُصبحُ جسدُ الفتيات الصغيراتِ ساحةَ المعركة، ويغدو الاغتصابُ تعبيراً عن الهَيْمنة، وطريقةً لإذلال الآخر، وممارسةً تُحقِّق التواصلَ مع الخصم عبرَ أجسادِ النساء، وعَبْر أنْثَنَةٍ لرجال المُعسكر الآخر كما وَرَدَ في نصِّ أمال قرامي وكما ترْجَمَتْه شهاداتٌ حيَّةٌ لزكيَّة قرنفل وأخريات. ألَم تُنصِّب الجماعاتُ التكفيريَّةُ نفسَها، في أكثر من بلدٍ عربيٍّ من البلدان التي كانت مسرحاً للحروب، حارسةً للعِفَّة، مقوِّضةً ما حقَّقتْهُ النساءُ من مُكتسَباتٍ حقوقيَّةٍ ومظاهرِ انفتاحٍ وعصْرَنة، بحسب ما تُطلِعُنا هدى العطّاس عن اليمن مثلاً؟

إنّها الحروبُ التي تحوَّلَ فيها العنفُ إلى طقسٍ متكرِّرٍ للموت فارِضاً التنازُلَ الإجباريَّ عن الأطفال ليصيروا سلعةً في سوق التبنّي الدوليّ كما رَوَت لنا زينة علّوش، أو عاملاً أساسيّاً في اضْطراب الهويّات كما بيَّنَتْ تغريد القدسي ـ غبرا، أو وسيلةً للاضْطهاد الدّينيِّ كما وصَّفته فاطمة واياو. إنّه ذاك العنفُ الجامحُ الذي تعجَزُ القوانينُ والمُعاهداتُ الدوليّةُ والاستراتيجيّاتُ الوطنيّة عن مُحاربتِهِ والحؤولِ دونَ وقوعِهِ على النساءِ كما أكّدت سلمى عبد الله، بقدر ما عجَزَتِ الثوراتُ العربيّة عن القضاءِ عليه بحسب بِيا قزّي.

لكنْ.. للحياة وجوهٌ أخرى.. للحياة قوّةٌ تُعلِن عن نفسِها باثَّةً فينا نحنُ البشرَ طاقاتٍ إيجابيَّة. لذا، وعلى الرّغم مِن كلِّ القيودِ التي تفرضُها الحروبُ والنِّزاعاتُ على الأنثى، الطفلة/الرّاشدة لاحقاً، ثمّةَ خطوطٌ مفتوحة على الضوءِ يُمكِن أنْ نرصُدَ خيوطَها في طيّاتِ هذا الكِتاب. أوّلُها خطُّ المُواجَهة. وللمُفارَقة سنَجِدُ أنَّ الحروبَ مع العدوِّ الخارجيِّ، الواضِحِ الصفاتِ والمَعالِم، تفتح الطريقَ أمامَ فِكرةِ المُواجَهة. فقد أَعطت مُواجَهةُ العدوان الإسرائيليِّ في لبنان، على الرّغم من كلّ ما ترتَّب عنها من مآسٍ، معنىً للحياة كما تقول زينب خليل. وجعلَتْ هذه المُواجَهةُ الفتياتِ في فلسطين يُطوِّرْنَ أساليبَ التكيُّفِ كما تُشير إلى ذلك تغريد السميري وأليس يوسف. ومن فلسطين أيضاً سوف ينبثق نموذجٌ جميلٌ للطفلةِ العربيّة مثَّلته عهدُ التميمي الَّتي أشارت إليها كلٌّ مِنْ هند الصوفي وريمي عبد الرسول. في حينٍ أنَّ حربَ الاستقلال في الجزائر أمدَّت النساءَ بأصواتٍ رافضةٍ للتهميشِ والاستعلاءِ كما جاء على لسانِ مريم بو زيد وزليخة قشوش.

هذا مشهدٌ عامٌّ للكِتاب، بَطَلَتْهُ الطفلة الأنثى، ولكنْ لن تغيبَ عمَّن يقرأه رؤيةُ بطلةٍ أخرى أطلَّت برأسِها في كلِّ نصوصِهِ: إنَّها الأمُّ الحاضرةُ بقوّةٍ حتّى تكاد تبدو هي المُتكلِّمةُ الأولى فيه. فقد حملتِ البناتُ صوتَ الطفولةِ المَنسيَّ لأمَّهاتِهِنَّ تارةً، وكانت الأمُّ تارةً أخرى طوقَ النجاةِ لبناتِها، وفي أغلبيَّةِ السَّردِيّاتِ كانت الأمُّ الصدرَ الحنونَ ومَصدرَ الأمانِ أو حاملةَ الضَّيْمِ والمُساندةَ الأساسيَّة. لم نعثرْ في سردِيّاتِ هذا الكِتابِ على صوتٍ يلومُ الأمَّ. الصوتُ اللّائِمُ الوحيدُ صدَرَ عن الأمِّ نفسِها، التي راجعَتْ تجربتَها وحذَّرَت ابنتَها واعتذَرَت منها في رسالةٍ كتبتْها بيسان طي.

في مقابلِ ذلك كلِّه، لا بدّ لنا مِن القولِ إنَّ سَبْرَ غورِ عَيشِ الطِّفلاتِ والمُراهقات في الحروب، والبحثَ في أحوالِهِنَّ وأوضاعِهِنَّ في منطقةٍ تقع على صفيحٍ ساخنٍ من الحروب والنِّزاعات المتتالية، وخصوصاً في بلدٍ كلبنان، شهِدَ حرباً أهليَّةً استمرَّتْ خمسةَ عشَرَ عاماً، واعتداءاتٍ إسرائيليَّة متكرِّرة، واحتلالاً لقسمٍ من أراضيه، واجتياحاً لعاصمَتِهِ بيروتَ في العام 1982، إنَّ وضعاً كهذا جَعَلَنا كباحثاتٍ لبنانيّاتٍ أمامَ صعوبةِ الفصلِ بين الذّاتِ والموضوع. فأغلبيَّتُنا ذُقنا في طفولتِنا طعْمَ التهجير، والخوف، وعدم الأمان، والفقدان الَّذي تختزنُهُ ذاكرتُنا وخلَّفَ فينا ندوباً لا تُمحى. ولبنانُ، البلدُ الَّذي كانَ ولا يزالُ موئِلاً لآلافِ الفِلسطينِيّين الَّذين شُرِّدوا وطُرِدوا من أرضهم، نراه اليومَ يحتضنُ أكثرَ من

مليونِ لاجِيءٍ جرّاء الحربِ في سوريا، ويُواجِه أعظمَ كارثةٍ شهدها العصر: كارثةُ انفجارِ مرفأ العاصمة بيروت. هذا عدا عن أنَّ هذا الموضوع أشعرَنا وكأنَّنا نعيش ثِقلَ الماضي وجراحاتِهِ؛ إذ إنَّ كلَّ إسهامٍ وَرَدَ إلينا أيقظَ طفولتَنا الَّتي عاشت أهوالَ الحروبِ والنِّزاعاتِ، وأَثْقَلَ علينا وطأةَ الحاضرِ وحَربَهُ النّاعمةَ المصحوبةَ بأزماتٍ سياسيّةٍ ومعيشِيَّةٍ وصحيَّةٍ وأمنيَّةٍ تُضاعِف منسوبَ القلقِ على المستقبلِ وعلى الأجيالِ اللّاحِقة.

لكنْ، على الرّغم من هذا السوادِّ كلِّه، تفاعلتِ الباحثاتُ غيرُ اللّبنانيّاتِ مع الموضوع بحسب منطلقاتِ الواحدة منهنّ واهتماماتها. قرأ بعضهنّ تمثُّلاتِ الطِّفلاتِ في الحروب قراءةً نقديّة، عَبْرَ إبرازِ ما قيلَ وما رُوِيَ عنهُنَّ، أي بلسان الآخرين، فكان المحورُ الأوَّلُ. وبعضهُنَّ اخترْنَ الاستماع إلى الطِّفلاتِ والمُراهقات وهُنَّ يَسردْنَ تجاربَهُنَّ ومعاناتِهِنَّ بأصواتِهِنَّ وبلغتِهِنَّ، فكان المحورُ الثّاني للكِتاب. ومنهنَّ مَن كان هاجِسُهُنَّ البحثَ في تداعياتِ الحروبِ على الطِّفلاتِ سعيّاً إلى رسْمِ مَعالِم خطط واستراتيجيّات تُخفِّف من تلك الآثار، فكان المحورُ الثّالِثُ. ومنهُنَّ مَنْ أدلَيْنَ بشهاداتِهنَّ أو بوُجهةِ نَظَرِهنّ، مع التركيز على الندوبِ العالقةِ منذ الطفولة، فأَثرْنَ موضوعاتٍ تُطاولُ النَّفسَ البشريَّةَ في طور تفتُّحِها ولحظةِ انعقادِ براعِمِها، ولامسْنَ بذلك مسائلَ الهويَّة، والذاكرة، والحُلم، والتواصُل بين الأجيال، فكان المحورُ الرّابِعُ.

لا بدّ من القول إنَّ مُعالَجةَ موضوعٍ كهذا يتَّسِمُ بالتشعُّبِ والتعقيد في سياقٍ من الحروب العربيّة المُستدامةِ ومن جائحة كورونا لم يكُن بالأمر الهيِّن؛ فبعضُ اللّواتي التزَمْنَ بالإسهام في الكِتاب تخلَّفنَ أو اعتذَرْنَ بسبب المرض والفقدان، وبعضُهُنَّ الآخرُ عجز عن استكمال الموضوع بسبب الحَجْر الذي كان مفروضاً عليهِنَّ، والأشدّ إيلاماً كان فقدُنا لزميلتِنا في التجمُّع الدكتورة وطفا حمادي بسبب جائحة كورونا وهي كانت في عِداد اللّواتي كنَّ ننتظرُ استلامَ مساهمتِهِنَّ حول «فتيات اللّجوء يبحن بالمسكوت عنه في المسرح». ولكنْ، نعودُ للقول إنّه على الرّغم من هذه العقبات كلِّها وعلى الرّغم من الحزنِ كلِّه، كان الإصرارُ أقوى، واستوى الكِتابُ بين أيدينا متضمِّناً أربعة محاور يجمعُها إيمانُنا بالمؤنَّثِ وبضرورةِ إخراجِهِ إلى الضوءِ، وإيماننا بمقولةِ بول ريكور بعدم إمكانيَّةِ الذّاتِ أن تكونَ فاعِلةً في التاريخ من دونِ رِوايَتِهِ وسرْدِه.

المحورُ الأوّلُ قارَبَ تجربةَ الفتياتِ الصغيراتِ في الحروب وتمثُّلاتِها في النِّتاجاتِ الثقافيَّةِ والإعلاميَّةِ والقانونيَّةِ والفنِّيَّةِ. وفيه تنطلقُ أمال قرامي في دراستِها مِن واقع تهميشِ الإنتاجِ الأكاديميِّ والثقافيِّ للبُعدِ الجندَريِّ والعُمريّ، بإهماله فئة الطفلات والمُراهقات اللّواتي بقينَ خارجَ دائرةِ البحث. وانطلاقاً من هذا التجاهُلِ أو التغييبِ أو التهميشِ أو العمى الإداركيّ، تقومُ الباحثةُ برصْدِ علاقةِ الطفلاتِ والمُراهقات الجزائريّاتِ بالنِّزاعاتِ والحروبِ والأزماتِ متوقِّفةً عند تجربتَيْ حربِ التحرير 1954 ـ 1962، والحربِ الأهليَّة «لِلعشريَّةِ السوداء» في تسعينيّاتِ القرن الفائت. وتتوقَّف عند آليَّةِ «التصميت» باعتبارها عنفاً آخرَ يُمارَسُ على الضحيَّة، شأن الاغتصاب. والمُحصِّلةُ هي تدميرُ حيواتِ الطفلاتِ والمُراهقات وسرِقَةُ مستقبلِهِنَّ وتحويلُ وُجهةِ طُموحاتِهِنَّ وتحجيمُها بعدما كانت أحلامُهُنَّ تتمثَّلُ في تحصيلِ الشهادةِ وإثباتِ الذّات.

ويضمّ هذا المحورُ دراسةَ نهوند القادري عيسى الَّتي تنقد فيها تخبُّطَ المُعالَجةِ الإعلاميَّةِ وأزمةَ الثقةِ والمصداقيّةِ التي تتعرّضُ لها المهنةُ الإعلاميّة، نتيجةَ اختلاطِ حدودِ الكلامِ الإقناعِيِّ بالتضليليّ، وانشغالِ الإعلام بالـ «كَيْف» على حساب الـ «لِماذا». ومن خلال عيِّنةٍ من الأعمال الصحافِيَّة التي تناولت الأطفالَ في الحروبِ، تُبيِّنُ القادري النقاطَ المغلوطةَ لهذِهِ المُقارَبة، والنَّظرةَ الفوقيَّةَ إلى مُمارساتِ اللّاجئين وسلوكاتِهِم، واستخدامَ الأطفالِ ضحايا الحروب لأغراضٍ دعائيَّةٍ أو كدروعٍ بشريَّةٍ وأدواتِ تسويقٍ ودعايةٍ وتسريبِ رسائلَ تعميميَّةٍ ونمطِيَّةٍ تُشوِّه هذه الكيانات.

وحول القاصرات في عيون القانون، تقرأ عزّة سليمان مضمونَ الأنظمةِ والقواعدِ القانونيَّةِ وارتباطَها بالظروفِ الاجتماعيّةِ والأُطُرِ السياسيّةِ العامَّةِ وما يطرحُهُ ذلك من تحدِّياتٍ مُضاعَفة. يرتبط الموضوعُ بفئةِ الفتياتِ القاصراتِ لكونِهِنَّ يخضعنَ أوّلاً لفئةِ الأطفالِ ـ كفئةٍ مَعنيَّةٍ بالحِمايَةِ بسببِ نقصِ أهلِيَّتِها للقيام بذلك ـ، ويخضعْنَ ثانياً للنصوصِ الخاصّةِ بحمايَةِ النساءِ نظراً إلى طبيعةِ الظلمِ الواقعِ على النساءِ في المُجتمع البطريركيّ. وعلى الرّغم من أنَّ استغلالَ سِلاحِ الاعتداءِ الجنسيّ يُعرِّضُ القاصراتِ لمَخاطر استغلالٍ أكثرَ عنفاً، وعلى الرّغم من تشكيلِ استغلالِ الأطفالِ والطفلات في العمل عاملاً دائماً في الحروب وهو أحدُ أبرزِ أشكالِ الانتهاكاتِ والجرائم، لم يتبلوَرْ لغايةِ الآنَ توجُّهٌ واضِحٌ للنظر إلى فئةِ القاصراتِ كفئةٍ مُستقلّة.

تُقدِّم هند الصوفي في هذا المحور أيضاً دراسةً عن التحوُّلاتِ والأنماطِ الفنِّيَّةِ لصُوَرِ الفتياتِ في الحروب العربيّة. وتُلاحِظ أنَّ أهمَّ موضوعاتِ الأزماتِ والحروبِ في حقبةِ الحداثةِ العربيّة (حتّى نهايةِ الثمانينيّات) كانت مُخصَّصةً للشهيدِ والأمِّ الثكلى؛ أمّا الفتاة فكانت مُلحَقةً بالأُمِّ، ثمَّ تحوَّلت إلى علاماتٍ هادفةٍ للنضالِ استُغِلَّت في القضيّةِ العربيّة لتأجيجِ الفعلِ الثوريّ، عبر تمثُّلِها كرمزٍ للأرض ولفِعْلِ اغتصابِها. لكنَّ الصورةَ تغيَّرتْ شيئاً فشيئاً، ولم تعُد الفتياتُ، والنساءُ بعامَّةٍ، مجرَّدَ ضحايا مهما بلغت مآثرُهُنَّ في النّضالِ المُجتمعيِّ، ولاسيِّما، وبحسب ما تُشير الصوفي، مع التغيُّرِ الكبير للأنماط الفنيَّة الجديدة.

كذلك يضمّ هذا المحورُ دراسةَ ريمي عبد الرسول حولَ صُوَر البطلةِ في الأعمالِ الكرتونيَّةِ الموجَّهة للأطفال. فترى أنّه خلال ثمانينيّاتِ القرنِ الماضي شهدت الشاشاتُ العربيّة تدفُّقَ المُسلسلات والأفلام الكرتونيَّةِ الأجنبيَّة المُدبلَجة من الإنتاج الياباني «الأنمي» (Anime) أو الأميركيّ. وبنتيجةِ تحليلِها عيِّنةً من المُسلسلات الكرتونيَّة، تبيَّن لعبد الرسول أنَّ هذه الأعمالَ حملتْ صُوراً متنوِّعةً لبطلاتٍ شجاعاتٍ غيرِ نمطِيّاتٍ يتحلَّيْن بحسِّ المسؤوليَّةِ تجاه الذّات وتجاه المُجتمع والطبيعة. وتخلص دراستُها إلى ضرورة العمل على إنتاج أعمالٍ كرتونيَّةٍ عربيَّة تُحاكي واقعَ الفتياتِ وأوجاعَهُنَّ وتساعدُهُنَّ على تخطّي الصدَماتِ الَّتي عِشْنَها وانعكاساتِها السلبيَّة عليهِنَّ.

المحور الثاني حَمَلَ أصواتَ الطِّفلات والمُراهقات اللّواتي نَقَلْنَ تجاربَهُنّ بكلِّ ما تختزنُهُ من صعوباتٍ، فضلاً عن أشكالِ التكيُّف التي أُتيحَ لهنَّ القيام بها. وفي هذا المحور تنصتُ رجاء مكّي إلى فتياتٍ لبنانيّاتٍ خَضَعْنَ لجلساتٍ علاجيَّة، فترصُدُ صدماتِهِنَّ العاطفيَّة، وتستخرج قلقَهُنَّ المُتوارَث عن الأهل، وتُسلِّط الضوءَ على أوجاعِهِنَّ المُخزَّنة، فتكشف كيف تستيقظُ النزواتُ الأوّليَّةُ في ظلِّ الحروب، وتُصبح الذاكرةُ مُمتلِئةً بالصدماتِ والصُّوَرِ المُرعِبةِ التي لا يُمكِن التعبيرُ عنها بالكلمات. كما تُبيِّن مكّي أيضاً كيف تأثَّرت صورةُ الفتيات عن أنفسِهِنَّ من خلال التماهي الأنثويِّ مع الأمّ. وتخلص إلى أنّ موروثَ القلق، العابر للأجيال، عزَّزَ لدى الفتياتِ مَشاعرَ مُتناقِضة، بحيثُ أَوصلتْ هذه المُعاناةُ الفتياتِ إلى «فوضى الضغط» من خلال ذاكرةِ الحربِ المنقولة، وهي تروما الموت والقتل، سواءٌ أكانت مُعاشةً أم راكدةً أم مُتخيَّلة.

وتسعى نهى الدَّرويش ونهلة التميمي للتعرُّفِ إلى صورةِ الجسدِ لدى الفتياتِ المُراهقات في المحافظاتِ العراقيّة التي عانت من وطأةِ الإرهاب وحوادث الخطف والسبي والاغتِصاب. وتتوقّف الباحثتان عندَ أساليبِ تعامُلِ الأمَّهاتِ مع بناتِهنَّ، وانعكاسات هذه الصورة على أحوالهنّ النفسيّة، وذلك قبل أن تخلصا إلى أنّ معظمَ الفتياتِ اللّواتي تمّت مُقابلتهُنَّ كَرِهْنَ أجسادَهُنَّ لأنَّهنَّ وَجدْنَ في هذا الجسدِ سببَ عذاباتِهنَّ، وسببَ قتلِهنَّ أو قتْلِ أُسَرِهِنَّ أو سبباً لوصْمةِ عارٍ أبديَّة.

وإذ تطرح تغريد السميري أسئلةً عن قدرةِ المُراهقات الفلسطينِيّاتِ على تطويرِ أساليبِ تكيُّفِهِنَّ خلال الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة، تلحظُ من خلال إجاباتهنَّ عدمَ ارتفاعِ مستوى الهشاشةِ لديهِنَّ نسبةً إلى الحروب السابقة، وذلك على الرّغم من نظام الهشاشة الصلبِ المفروض عليهِنَّ. كما تلحظ بعض التمايُزاتِ في المستوى المعيشيّ المُرتبِطِ بمكان النزوح. فتخلُصُ السميري إلى أنّه فضلاً عن الخوفِ الشديد للمُراهقات الفلسطينيّات من الحروب المُتكرِّرة، وافتقادِهِنَّ إلى مَصادرِ الدَّعم على المستوى الصحِّيِّ والنفسيّ، وعَيشهنَّ في أماكنَ غيرِ آمنةٍ، ثمّةَ عواملُ أخرى مقيِّدةٌ للفتياتِ مرتبطةٌ بالتعقيداتِ الثقافيّةِ الذكوريَّةِ، والهرميَّةِ، وتقديم حاجات المجموعة على حاجات الفرد.

تترك سعدى علوه العنان للمُراهقات للتعبير عن أحوالِهِنَّ وعن الطُّرُقِ الشاقَّة التي قطعْنها كناجياتٍ من حروبٍ قاسيةٍ لم ترحمهُنَّ. فتُبيِّنُ كيف أنَّ اللّجوء نفسَه صاغ لكلٍّ منهنَّ حكايةً تختلف عن الأخرى وفقاً للظروف المُساعِدَة أو المُعرْقِلة، وإنْ كنَّ جميعهنّ قد اختزنَّ في دواخِلِهِنَّ الكثيرَ من الأسى والخَيباتِ والصعوبات، حتّى الناجيات من بينهنّ. وتخلص إلى أنَّ خسارةَ الوطن، وخسارة الهويّة هي حُكماً قاتلة على الصعيد النفسيّ وترتبط لدى بعضهم بالكرامة الإنسانيّة التي لا يُمكِن أن تعوِّضَها تقديماتٌ ومُساعداتٌ إغاثِيَّة أيّاً كان شكلُها.

تبحث سينتيا قريشاتي في الأرشيف الشفهيّ الفلسطينيّ، فتُعيد على مسامِعنا رواية سيّدتَيْن فلسطينيّتَيْن لقصّة إصابتهما بجروحٍ وأضرارٍ جسديّة جسيمة خلال فترة المُراهقة، جرّاء الاعتداءات الإسرائيليّة زمن النكبة. فتتوقّف قريشاتي عند أخلاقيّات «سَردِيّات الجُرح» وعند إشكاليّة توظيف الألم في سبيل الدّفاع عن حقوق الإنسان أو من أجل تحقيق مَطالبَ سياسيّةٍ معيَّنة، وتُناقِش مسألة اللّجوء إلى هذه السَّردِيّاتِ وصعوبة التعبير

عن الألم الشخصيّ والجماعيّ في سياقٍ اجتماعيّ وتاريخيّ تطغى عليه ديناميّاتٌ عنيفة من التهجير والحروب واللّجوء تخنق الحياةَ اليوميَّةَ وتشلُّها. فالإصغاء إلى الأرشيف، من وجهة نظر قريشاتي، بدا كنَوعٍ من الشهادة على هامش الكلام.

المحور الثالث في الكتاب يُعالِج تداعياتِ الحروب على الطِّفلات والمُراهقات؛ وفيه تتنوَّع المُقاربات وتتداخل، بحيث يتقاطع المنظورُ الجندريُّ في قراءة هذه التداعيات مع رؤىً وأبعاد متعدِّدة تأخذ بعَيْن الاعتبار دَورَ الطبقةِ والدّين والعِرقِ والخطابِ الاستعماريّ وما بعد الكولونياليّ. ونلمس نقداً ليس للسياسات المحليّة فحسب، بل للسياسات الاستعماريّة أيضاً، ولأداء منظّمات المُجتمع المدنيّ، ولبعض المؤسّسات والوكالات العاملة على استثمار الحروب، بالتواطؤ أحياناً مع الأطراف المُتصارِعة.

في هذا المحور تتناول زينة علّوش ظاهرةَ الإتجار بأطفال مناطق النِّزاعات المسلَّحة لأغراض التبنّي، وتتوقّف عند المشكلات والتعقيدات النّاجمة عن هذه الظاهرة على مستوى بناء الهويّة والانتماء، فتُسلِّط الضوءَ على الصوت الصامت لأمّهاتٍ، معظمهنّ قاصرات، أُجبرْن على حَمْلٍ غير مرغوب فيه بفعل الحروب والنزوح، وجرى بالتالي حرمانهنّ من أطفالِهنّ. وتربط علّوش بين التبنّي الدوليّ والمنظور الاستعماريّ لكونه يقوم على علاقةٍ غير مُتساويةٍ بين الشمال الغنيّ والجنوب الفقير. وتُشير إلى أنّ ازديادَ نسبة التبنّي في لبنان خلال الحرب دليلٌ على كيفيّة استثمار الحروب لاستضعاف الفئات الأكثر تهميشاً، ولاسيّما الفتيات، عبر استغلالِهنّ ومن ثمّ إجبارهنّ على بيع أطفالِهنّ. وتُشير إلى أنّ هذا كلَّه يحدث في مساراتٍ غيرِ قانونيّة ومن خلال التواطُؤ بين جهاتٍ عدّة ليست الجمعيّات بمنأىً عنها، فضلاً عن مِزاجٍ شعبيٍّ يستسهلُ الحُكمَ على الأمِّ بأنّها مُتخلِّيَةٌ عن طفلها.

وتبحث سعاد العباني في تداعياتِ الحربِ والنِّزاع المسلَّح الذي شهدته ليبيا خلال العام 2019 على تعليم الفتيات، فتُبيِّن كيف أنّ عُمقَ الأزمة التي طاولت المنظومة التعليميّة كان لها أثرٌ بالغ في الحياة اليوميّة للأطفال والطفلات، وكيف تجلّى ذلك بتقليص أنشطتهم/هنّ التعليميّة والحدّ من التواصُل الاجتماعيّ الحرّ مع جماعات الأصدقاء والأهل والأقارب. وهذا ما أثَّر سلباً في الحالة النفسيّة للأطفال، وجَعَلَهم يُعانون من صعوبات التأقلُم والتكيُّف مع البيئات الجديدة، وأَضعف مستواهم/هنّ

التعليميَّ والثقافيّ، وأدّى إلى انتشار العديد من المظاهر الهدّامة المُرتبِطة بالمشكلات الاجتماعيّة. وتلحظ العباني في هذا السياق أنّ الفتياتِ كنَّ الفئةَ الأكثرَ هشاشةً وتعرُّضاً لهذه المَخاطر، كالاغتِصاب والقتل، والتمييز الجنسيّ داخل العائلة الواحدة.

تُقارِب فاطمة واياو موضوع الطفلات اللّاجئات الأفريقيّات إلى المَغرب العربيّ، بوصفه بوّابة عبور من العالَم الفقير إلى العالَم الغنيّ، من منظور النسويّة التقاطُعِيَّة. فتُبيِّن واياو كيف أنّه يتمُّ التعامُلُ مع اللّاجئات الأفريقيّات القادمات من جنوب الصحراء سعياً للانتقال إلى البلدان الأوروبيّةِ بطريقةٍ مُغايرة عن تلك التي تُعامَل بها اللّاجئات القادماتُ من بلدان عربيّةٍ وإسلاميّةٍ (سوريا، اليمن)؛ بحيث تتعرّضُ الكثيراتُ من الأفريقيّات، وخصوصاً المسيحيّات، لمُضايقاتٍ وعنفٍ قائم على النَّوع الاجتماعيّ وعلى الانتماءات العِرقيَّة والدّينيّة وغيرها. وتتوقّف الباحثة عند واقع نزوح الفتيات وتحدِّيات اندماجِهِنّ المتمثّلة بالعمل على تفعيل قدراتِهِنَّ الذاتِيَّةِ وإصرارِهِنَّ على رفع التحدِّيات وتغييرِ واقعِهِنّ الهشّ.

تتناوَل بيا قزّي «الاعتداءات الجنسيّة على الفتيات والمُراهقات في تونس ما بعد الثورة». فعلى الرّغم من أنّ تونس من بين البلدان الرائدة تشريعيّاً في مجال حماية الطفولة بصفةٍ عامّة، والحماية من الاعتداءات والاستغلال الجنسيّ بصفةٍ خاصّة، إلّا أنّ الدِّراسات بيَّنت بحسب قزّي أنّ العنفَ الجنسيّ ضدّ الفتيات تضاعَفَ عشر مرّات خلال العشريَّة الأخيرة، وأنّ وضعيَّةَ الجائحة والحَجْر الصحّيّ قد أسهَما في تزايده، وذلك بتعرّضهنّ للاعتداء إمّا واقعيّاً أو افتراضيّاً عبر الإنترنت. كما شهدتْ تونس تطوّراً في أنواع الجرائم الجنسيّة على الأطفال، وبخاصّة الفتيات، بحيث يُصار إلى استغلالِهِنَّ في إنتاج أو تبادُلِ الموادّ الإباحيّة ونَشْرها على الشبكة العنكبوتيّة ومن ثمّة ابتزازهنّ ماديّاً ومعنويّاً. جلّ المؤشّرات تُؤكِّد تفاقُمَ أعداد الضحايا، ولاسيّما بعد الثورة، وذلك توازياً مع زَخَمِ العنف الاجتماعيّ والسياسيّ والنفسيّ الذي تشهده البلاد.

تبحث سلمى عبد الله في تأثير النزوح على حياة الفتيات السودانيّات، وتعرُّضِهِنّ للعنفِ القائم على النّوع الاجتماعيّ. فتُناقِشُ النقصَ في حماية ضحايا هذا العنف بما يتناسبُ مع القوانين والمُعاهدات الدوليّة. وتُناقش عبد الله أيضاً فعاليَّة الاستراتيجيّة الوطنيّة لمُحاربة العنف ضدّ النساء، ومدى قدرتِها على الاستجابة لهذه التحدِّيات، كاشفةً

عن عُمق الهُوَّة بين هذه الاستراتيجيّة وبين الواقع، وخصوصاً في ما يتعلّق بالناجياتِ من الحروب. كما تتوقَّف عند المنظّمات غيرِ الحكوميّة العاملة في هذا المجال، والتي تُواجِه بعضَ المعضلات العائدة لأخلاقيّات العمل مع الناجيات؛ إذ كانت هذه الاستراتيجيّات عرضةً للانتقاد، بسببِ افتقارِها إلى الحساسيّة الكافية إزاء الحاجات الاجتماعيّة للناجيات، وتمثَّل ذلك بعرْض هذه المنظّمات لحالات بعض الناجيات من العنف ونشْرها من دون موافقتِهِنَّ.

المحور الرّابع يضمّ مقالاتٍ ووجهاتِ نظر وشهاداتٍ متنوّعة عن حيَوات الطفلات في عددٍ من البلدان العربيّة، فينقل مَشاهدَ عن هذه الحيواتِ من فلسطين والكويت واليمن ولبنان والجزائر وسوريا بناءً على خبرةِ الباحثةِ أو تجربتِها في العمل مع الطِّفلات، أو بناءً على ذكرياتِ الكاتباتِ أنفسِهِنَّ عن طفولتِهِنَّ أو طفولةِ بناتِهِنَّ.

بعنوان «هويّة اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصيّة ككويتيّة فلسطينيّة»، تناوَلت تغريد القدسي ـ غبرا مسألة الهويّة المُختلطة المُركَّبة في زمن الصراعات، من خلال تجربة ابنتَيْها اللّتَيْن عاشتا حَدَثَ الاجتياح العراقيّ للكويت في العام 1990؛ ذلك أنّ هذا الحَدَث جَعَلَ الكاتبة وابنتَيْها اليافعتَيْن يعشْن مجدّداً معنى الهويّة الفلسطينيّة المسلوبة، لكنْ ليس انطلاقاً من الذاكرة واستناداً إليها هذه المرّة، لكنْ بشكلٍ حقيقيّ وواقعيّ. فبعد زمنٍ سادَ الظنّ فيه بعدم وجود أيّ تنافُرٍ بين الهويّتَيْن الكويتيّة والفلسطينيّة، بدا التذبْذُب واضحاً لدى الابنتَيْن، لا بل بدا مصحوباً بحالةٍ من الضبابيّةِ الفكريّةِ بشأنِ مسألةِ الولاء، إذ لم يكُن سهلاً على اليافعات أن يستوعبْنَ قضايا الهويّة المهدَّدة.

ومِن اليمن كَتبتْ هدى العطّاس مقالةً بعنوان «حين صارت نساء عدن خياماً سوداء تتحرّك» تنقل فيها ذكرياتِها عن واقعة زحف قوّات الشمال إلى عدن بعد القصف العنيف الذي تعرَّضت له المدينة، وما تبع ذلك من مَظاهرَ عُنفيَّةٍ طاولت النساء كالسبي والاغتصاب، إلى جانب عمليّات النّهب والتدمير وغيرها من مخلّفات الحروب. تَصِفُ العطّاس كيف مكَّنَ النّظامُ المُنتصِرُ الإسلاميّين المُتطرّفين من السيطرة على المدينة التي لفظَت آخر أنفاسَ حريّتِها، مُشيرةً إلى تغيُّر سلوك الأُسَر التي أَجبرت بناتها على ارتداء النقاب خوفاً من تعرُّضِهِنّ لمُضايقاتٍ واعتداءاتٍ، فيما توقَّفت بعض الفتيات عن مُواصَلة دراستِهِنَّ، وزادت حالات الزواج التقليديّ، وخصوصاً بين الصغيرات، ونشطَ دَورُ الخاطِبةِ

مجدَّداً، بعدما كان قد تلاشى، وحُرِّم الاختلاط بين الجنسيّن بالقوَّة، وكان إلغاءُ قانونِ الأسرةِ بمكانةِ انتكاسةٍ كبرى للمُكتَسَباتِ التي حقَّقَتها النساء في جنوب ما قبل الوحدة.

أمّا نصّ أليس يوسف الذي جاء عن فلسطين بعنوان «الهروب إلى نانجيالا: كيف أنقذَني الخيالُ في زمن الحرب»، فينقل جزءاً من سيرة حياة الكاتبة في القدس ـ فلسطين في الأشهر الأولى من الانتفاضةِ الفلسطينِيَّةِ الثانية (انتفاضة الأقصى 2000 ـ 2004). تعود أليس يوسف إلى يومِيّاتِها كطفلةٍ في أوج فترة الحرب، شهر آذار/مارس من العام 2001. تعود إلى الطفلة التي كانتها وهي لا تزال في الصفّ السادس، وكيف واجَهتْ الحربَ بالدراسة والنسيان اللّحظويّ أو المُوَقَّت، متوسِّلةً القراءة والغَوص في عالَم كُتب الأطفال. ذلك هو بالنسبة إليها طَوق النجاة الذي أسعَفَها بقدر ما أَسعفتها «البطولة الأنثى»، فكانت، ولو للحظات كما أرادت أن تكون: آمنة لأنّها ذاتها، آمنة لأنّها حرّة.

من لبنان وعنه ثمّة نصوص خمس. الأوّل يعود إلى بيسان طي التي تكتب عن تجربةِ الأمّهاتِ في الحرب مقالة بعنوان «بريد الذاكرة الهاربة من الحرب... العالقة في براثِنِها»، وهي عبارةٌ عن رسالة على لسان أمَّهاتٍ عِشْنَ مراهَقَتَهُنَّ في زمن الحرب الأهليّة، يتوجّهْنَ فيها إلى بناتِهِنَّ المُراهقات اللَّواتي شاركْنَ في حراك العام 2019 الشعبيّ في لبنان. فتشرحُ الأمَّهاتُ لبناتِهِنَّ في هذه الرسالة نقاطَ الضعفِ المُتراكمة في حيواتِهِنَّ، والتي لم يفهمْنَ ما انطوتْ عليه من تراكُماتٍ عنفيّة. ويهالهنَّ اليومَ رؤية الأقفاص وهي تُطبِق أبوابَها مجدَّداً على جيلِ بناتِهِنَّ المُراهقات، ويدعونَهُنَّ إلى رفض ما يُعوِّقُ أمورَ الحياة الصعبة وعدم تكرار أخطائِهِنَّ.

وتكتب الباحثة بيلّا عون عن تحوُّلات المُراهقة في زمن الحرب وآثارها التي لا تُمحى حتّى ولَو غيَّبها النسيان. فهذه الآثار تظهر بأشكالٍ مُختلفة لاحقاً، لأنّ التحوُّلاتِ الَّتي تعيشها الفتاةُ المُراهِقةُ رمزيّةٌ ونفسيّة. فمشاعرُ مثل عدم الأمان والقلق على موت الأمِّ وغيرها تنتقل من خلال جسد الفتاة لتُعبِّر عن نفسها بعوارضَ متنوِّعةٍ كالكوابيس والبرودة والاضْطهاد واضْطراب الأكل أو الشراهة... إلخ، حتّى إنّ عدداً من الفتيات اللّواتي انخرطْن في الحرب، رفضْنَ لاحقاً الإنجابَ كما سبق وذكرنا.

في مقالتها «مشهديّة طفولة في زمن الحروب» ترجع أمال حبيب بالذاكرة إلى طفولتها ونشأتها في منطقة «المصيطبة» في بيروت في خمسينِيّات القرن الفائت؛ أي حين كانت

العاصمةُ بيروتَ قد شكَّلتْ أنموذجاً بجمالِها وتناقُضاتِها. فتعود إلى أحداث صيف العام 1958 حين انقلبَ حُسن الجوار إلى اقتتالٍ بين الجيران لتغدُوَ هذه الأحداثُ نمطاً أو «سيناريو» مُتكرِّراً يختلف في نَوع سلاحه وشدّته. من حرب السنتَيْن 1975 ـ 1977 إلى حرب الإلغاء (1990)، فحرب التحرير (1989)، فالاجتياح الإسرائيليّ لبيروت (1982)، وصولاً إلى انفجار مرفأ بيروت في 4 آب/أغسطس 2020، الذي أُصيبت آمال حبيب من جرّائه، سجَّلت مشهديّة الطفولة حضوراً مؤلِماً يتكرَّر ويحكي عن الحروب والطفولة بوصفها أولى ضحاياها الصامتة.

أمّا زينب خليل، فتناولتْ شهادتها التي جاءت بعنوان «عن حروب لم تُغادرنا» العدوانَ الإسرائيليّ على لبنان. عادت خليل بذكرياتها إلى العدوان الإسرائيليّ المُتكرِّر ونزوحِها القسريّ وعائلتها من قريتهم الجنوبيّة المُحاذِيَة لفلسطين إلى بيروت وشعورها بالعزلة عن المحيط، وإلى مَقتل والدها بقذيفةٍ وهي في الثامنةِ من عمرها، وعودتها مع باقي أفراد أسرتها مجدَّداً إلى الجنوب، حيث عاد إليها الشعور بالعزلة والخوف من عُملاء الاحتلال، وذلك قبل عودتها مرّة أخرى ونهائيّة إلى بيروت. تحكي زينب خليل عن الجنوب الذي بقي قابعاً في وجدانها، ولاسيّما خلال عدوانَيْ تمّوز/يوليو (1993) ونيسان/إبريل (1996) اللّذَين حدَّدا اختيارها الصِّحافة كاختصاصٍ جامعيّ، فالسفر من ثمّ إلى فرنسا لإتمام دراساتها العليا.

وبعنوان «هذه ليست بسطرما» كتبَتْ تانيا تنباك باقليان صفيّ الدّين عن تأثير المجزرة التي عاشها الأرمن في تركيا وهروبهم منها، وذلك من خلال سيرة جدَّتَيْها، التي تقاطعت معها الأنا الخاصّة بالكاتِبة. فكانت شهادةً تناولَتْ سيرةَ ثلاثِ نساءٍ أرمنِيّاتٍ، منهنَّ جدّتان الأولى من إزمير ومولودة في القاهرة، والثانية من قيصري ومولودة في قبرص، والكاتبة الحفيدة نفسُها التي هي خليطٌ من هذه الهويّاتِ والمولودة في بيروت. تروي تانيا صفيّ الدّين عن علاقة هؤلاء النساء الثلاث بالمُدن التي أَقَمْن فيها، وما حملته الواحدةُ منهنَّ من آثار المجزرة الأرمنيَّة، وآثارِ مُدنِهنَّ الحاضرة أبداً في وجدانِهنَّ، راسمةً معيشتهنَّ وصعوبةَ الإفلاتِ من الذكرياتِ المنقولةِ إليها من لَدُن الجدّاتِ ومِنَ الوصْمِ الذي يَلحقُ بالحفيدات.

يضمّ المحورُ أيضاً شهادتَيْن عن حرب الاستقلال في الجزائر؛ الأولى قدَّمَتها إيمان زليخة قشوش بالتشاركِ مع والدتِها فاطمة علّوش، حيث تتوقّف الكاتبةُ عند حادثة استشهادِ الأب على يد الفرنسيّين وما استتبع ذلك من شقاءٍ عاشتْه عائلتُها، كما تتوقّف عند الإحساس العارم بالخوف الذي شعرت به حيالَ الفرنسيّين، فضلاً عن عَيشِها في مُجتمع يُقمَعُ فيهِ النساءُ قبل الاستقلال وبعدَهُ، في ظلِّ غياب أبٍ يحمي. فكانت الهجرةُ حَلّا موَقَّتاً لأنّه لم يُشعِرْها بالأمان، بسبب الموقف الاستعماريّ للفرنسيّين، وكان الحلُّ بقرار العودة إلى الجزائر.

الشهادة الثانية قدَّمتها مريم بو زيد بعنوان «ذاكرة أمّي... ذاكرة ثورة لم تُكتب بعد»، وتَنقل فيها أجزاءً من سيرةِ حياة والدتها باعتبارها شاهدةً على ثورة «أجحفت» بحقِّها. ففي الرّابعة عشرة من عمرها قرَّرت الأمُّ، مثلها مثل الكثير من المُراهقات في ذلك الحين، أن تنتفض على واقعٍ استعماريّ مُزرٍ وأن تحملَ السلاحَ للمُشاركةِ في حرب تحرير الجزائر، لكنّها سرعانَ ما شَعرَتْ بعد الاستقلال بالظلم الذي رافَقَها طوال حياتِها بسبب التعتيم الذي مورِس عليها، وبقاء «سلطة الأيقونات» علامة تطبع الثورة الشعبيّة.

يضمُّ المحورُ أخيراً نصَّيْن عن سوريا، الأوّل عبارة عن شهادةٍ قدَّمَتها زكِيَّة قرنفل بعنوان «من ذاكرةِ الحرب السوريَّةِ المهمَّشة: قصَّةُ نجاةِ مُراهِقتَيْن أنضجتْهُما نيرانُ الحرب دفعةً واحدة». يوثِّقُ النصُّ قصّةَ أختَيْنِ مُراهِقتَيْنِ، كاشِفةً خبايا الذّاكِرةِ الأنثويَّةِ السُّوريَّة، حيث تشابكتْ خيوطُ التقاليدِ والأعرافِ الاجتماعيّةِ مع الواقعِ السياسيِّ والعسكريِّ الجديدِ الذي فَرَضَ عليهما حصاراً مطبقاً أُضيفَ إلى حصارٍ آخرَ فَرَضَه مُقاتِلو «داعِش»، واضْطِرارهُما من ثمَّ إلى لِبْس البُرْقعِ والهَرَبِ عبر طريقٍ غير شرعيٍّ إلى لبنان، حيثُ التحقتِ العائلةُ ببرنامجِ تمكينٍ وتأهيلٍ مع إحدى المنظّمات الإنسانيَّة، ساندَ إحدى المُراهِقتَيْن في الالتحاقِ مُجدَّداً بالمدرسة، وساند الثانيةَ في تعلُّم مهارات الكمبيوتر.

أمّا عن النصّ الثاني، فقد راجعتْ فيه ريما زهير الكردي روايةَ تغريد النّجّار لليافعين «ستشرق الشمسُ ولو بعد حين»، والّتي تستعرض أحداثَ الحرب في سوريا منذ بداياتِها، مروراً بتداعياتِها وأحداثِها المؤثِّرة. تتمظهر أحداثُ هذه الحرب الضروس في عائلةٍ من الطبقةِ االوسطى من خلال شخصيَّةِ الفتاة المُراهِقة «شادن»، المولودة من أبٍ سوريّ وأمٍّ فلسطينِيَّة. وتُحاك من هذا النسيج المُختلط تفاصيلُ تغيُّرِ المشهدِ السياسيِّ وانعكاساتِهِ

على النواحي الاجتماعيّةِ والاقتصاديّةِ للعائلة، وعلى الحياةِ النفسيّةِ والاجتماعيّةِ للفتياتِ تحديداً.

هذا غَيضٌ من فَيضٍ ممّا واجَهَتْهُ وتُواجِهُهُ الفتياتُ مِن جرّاءِ الحروبِ الَّتي لم تُغادِرْنا، والتي نأملُ من خلال إطلالةِ الكِتابِ عليها أن يكونَ قد فَتَحَ آفاقاً لمُقارباتٍ أنثويَّةٍ من مُختلف الاختصاصاتِ والحقولِ المعرفيَّةِ من شأنِها أنْ تُؤسِّسَ لمُنطلقاتٍ مفاهيميَّةٍ جديدةٍ تُعيدُ إلى الحياة معانيها الإنسانيَّةَ والأخلاقيّةَ المسلوبة.

في الختام، لا يَسعنا سوى توجيه الشكر إلى الزميلات اللّواتي كنَّ عَوناً لنا في إنجازِ هذا الكِتاب: د. سمر كنفاني لإضافتها العديد من اللّمسات على الكِتاب، د. نجلاء حمادة ود. مود أسطفان هاشم، لتولّيهما تحرير النصوص الأجنبيّة.